من مباحث أصول الدين
وعلم النفس

موقف البشر
تحت سلطان القدر

بقلم الراجي عفو ربه تعالى

مصطفى صبري
شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقا

المطبعة السلفية - ومكتبتها
لصاحبها محب الدين الخطيب

الطبعة الاولى

القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مباحث الكتاب المهمة

داء التقليد للغرب لم يسلم منه علماء الدين

نظرية دارون وعدم امكان تأليفها مع القرآن .

الرد على مؤلف كتاب (علم القضاء والقدر أو سر تأخر المسلمين) .

واجب الذب عن الايمان بالقدر من غير تأويله بما يشبه انكاره .

لا ينبغي اللجوء الى مذهب المعتزلة للتخلص من تهمة عقيدة القدر التي عزى اليها انحطاط المسلمين

الرد على مايتوهم من سقوط أهمية العمل اذا أومن بالقدر .

الاستدلال بعلم الله الازلي على الجبر وتحقيق ماله وما عليه .

نقد أقوال الشيخ محمد عبده وامام الحرمين وابن قيم الجوزية المائلين الى الاعتزال ، والشيخ محي الدين بن عربي القائل باسناد أفعال العباد الى استعداداتهم غير المخلوقة ، والشيخ الآلوسي الذي تابعه ومشى عليه في تفسير قوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة)، وقول علماء الماتريدية بعدم كون الارادة الجزئية مخلوقة لعدم كونها موجودة ، وقول صدر الشريعة ان الفعل بالمعنى المصدري من الانسان وبالمعنى الحاصل بالمصدر من الله ، وقول العلامة التفتازاني في تفسير الفعل المذكور في قولهم « الله خالق افعال العباد » بالمعنى الحاصل بالمصدر ، وقول المفسر أبي السعود في تأويل قوله تعالى (وما تشاءون الا أن يشاء الله) ، وقول فضيلة الشيخ بخيت في تأويل قوله تعالى المذكور وقوله (وهو القاهر فوق عباده) ، (ولو شاء ربك مافعلوه) ، (فلو شاء لهداكم أجمعين) ، (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وقوله في حديث (ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة الخ) وقوله بأن تعلق ارادة العبد وقدرته بالفعل الاختياري لا يحتاج الى خلق جديد بل يكون بمقتضى ذاتيهما ، وقوله في ترتب خلق الله على كسب الانسان ترتبا عقليا لا عاديا كما هو المشهور ، وقول ابن حزم والخطيب البغدادي في حديث (احتج آدم وموسى الخ) .

بعض آيات وأحاديث القدر .

تحقيق مسألة الترجيح بلا مرجح .

نقد قول الكلنبوي في الجواب عن لزوم الايجاب في أفعاله تعالى على مذهب تعليلها بالحكم والمصالح ، وقوله ردا على الاشعري « اما ان تصح ارادة شيء من الفاعل المختار

بلا سبب يوجبه فلا يكون الانسان مضطراً فى ارادته أو لا يصح الا بسبب موجب فلا يكون الواجب تعالى مختاراً فى أفعاله وفى ارادته » .

تحقيق معنى الجبر المتوسط وتحقيق الفرق بينه وبين الاكراه والجبر المحض .

قولهم (أخفى من كسب الاشعرى) لا يصح أن يعد عيبا على مذهبه .

حصة الانسان فى أفعاله على مذهب الماتريدية ليس بأقل منها على مذهب المعتزلة فلا يصح أن يعد مذهب الماتريدية أوسط المذاهب .

مؤازرة الشيعة للمعتزلة متمسكين بقول سيدنا على (ان الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً لم يعص مغلوبا ولم يطع مكرها) .

الجواب على قول الصاحب بن عباد فى نصرة المعتزلة .

مسئولية الانسان عن أعماله مع كونه تحت سلطان مشيئة الله .

من هم القدرية ؟ .

آراء فلاسفة الغرب فى الجبر والاختيار وانتقادها .

قول الامام أبى حنيفة فى هداية الله تعالى واضلاله .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا للايمان والاسلام وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله نسأله دوام هدايته ونعوذ به من زوال نعمته والصلاة والسلام على من أرسله الله هدى ورحمة للعالمين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد فلما كان القضاء والقدر الإلهيان لايجرى فى الكون إلا حكمهما وليس الإنسان وأفعاله الاختيارية إلا جزءاً من أجزاء الكون فمسألة القضاء والقدر مع مسألة كون الانسان فاعلاً مختاراً مكلفا مسئولا عما فعله أو تركه فى الدنيا والآخرة ، المجموعتان فى قوله تعالى ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتُسألنَّ عما كنتم تعملون ﴾ مما تقاصرت عنه عقول العقلاء باعاً وضاقت به علوم العلماء ذرعا ناهيك أن القدر سر من أسرار الله ومن أجل ذلك افترق العلماء والعقلاء فى أفعال العباد الى مذاهب جرّت بعضهم الى انكار القدر والابتعاد عن معانى النصوص القطعية[1] والبعض الآخر الى مخالفة بداهة العقل[2] وبعضهم الى احداث نظرية ضعيفة لو سلمت لتنزل القدر عن مكانه السرّى الى منزلة مسألة بسيطة مع مافيها من انكار القدر أيضا وإنكار ماشهد به العقل حينما يبتغى أصحابها بين ذلك سبيلا[3] .

---

(١) اشارة الى مذهب المعتزلة (٢) اشارة الى مذهب الجبرية
(٣) اشارة الى ماذهب اليه الماتريدية

و إن خير المذاهب فى مسألة القضاء والقدر ماذهب اليه امام أهل السنة أبو الحسن الاشعرى الذى هو أول من رفع لواء المجاهدة واعتزل عن المعتزلة فأحيي عقيدة صدر الإسلام و خير القرون وقلب علم الكلام الى هيئة غير هيئته التى خلعها عليه المعتزلة والمرجئة والمشبهة ودام مذهبه عمدة عند متكلمى أهل السنة[1] لم تنزله عن مكانه الاسمى مخالفة بعض أصحابه له فى بعض المسائل وكذا مخالفة الامام أبى منصور الماتريدى الذى عاصره وتوفى بعده باحدى عشرة سنة وهو أيضا قدوة فى مذهب أهل السنة بعد الاشعرى ولم يمنع جمهور المتكلمين عن اتباعه فى مسألة أفعال العباد أيضا ماقاله بعضهم واشتهر بينهم كالمثل وهو « أخفى من كسب الاشعرى » لكون قوله أوفق لعقيدة الايمان بالقدر . دام هذا الى أن جاءت أيام تزعزعت عقائد المسلمين واحدة بعد واحدة امام رقى الامم الغربية فى الصنائع وعلوم المادة فمنذ تلك الايام النحسات أخذت عقيدة الايمان بالقدر تُتهم بكونها سائقة لمعتقديها الى الكسل والتقاعد عن السعى والعمل وسببا لتأخر المسلمين فى حلبة الحياة الدنيا ومن هاب الكلام ضد الايمان بالقدر هان له تحميل التهمة على مذهب الاشعرى فى مسألة افعال العباد وأراد تقوية مذهب الماتريدية أو المصير الى مذهب المعتزلة وفاته أن الايمان بالقدر من الامور المأمور بها فى الإسلام والترجيح بين المذاهب فى أفعال العباد يجب أن يوزن بميزان المراعاة للايمان بالقدر والمطابقة للحق .

ومن العجب أن عقيدة الايمان بالقدر التى أصبحت مضغة فى أفواه

(١) قال القاضى ابو بكر الباقلانى مقدم أهل السنة « افضل احوالى ان افهم كلام الشيخ أبى الحسن » (حاشية ابن أبى شريف على شرح العقائد النسفية)

الناس يتكلم ضدها من يعرفها ومن لا يعرفها فيتهمون بها المسلمين و يشاركهم فى الاتهام كثير من المسلمين أنفسهم و يوجد فى المشتركين كثير ممن انتصب للارشاد والمجاهدة فى سبيل الاسلام ولم أر حتى من الذين امتازوا باليقظة و بعد النظر منهم من تيقظ لدخول فكرة اتهام المسلمين بعقيدة القضاء والقدر فيهم من أعدائهم الغربيين غير الآلين جهدهم فى توهين عقائدهم الدينية ولا شك أن شر الافكار الدخيلة أخفاها دخولا كما أن أكبر الأعداء أخفاهم معاداة وداء التقليد للغرب الذى غدا آخر الادواء التى أصيب بها المسلمون وأشدها تعجيلا لموتهم لا يعدله فى الشدة والخسارة داء الأفرنج (الزهرى)، قد تسرب فى الذين تولوا علاج المرض من حيث لا يشعرون فشلا عن جيوش البالغين منه الى حد النزع فقد وقع ان رجال الدين بمصر استخفوا بمضرة لبس القبعة الافرنجية وعدوه على الاكثر جناية على القومية لا على الاسلام ومن عده جناية عليه تراوح فى حكمه بين التحريم والكراهة وكلهم أخرجوا التشبه بالكفار من علامات الكفر بالرغم من مناداة الاسلام بأن من تشبه بقوم فهو منهم فكأنهم رأوا تعبير القوم فظنوه حديث القومية لا حديث الاسلام وقد وقع أن الشعور القومى ترقى فى العرب وغلب الشعور الاسلامى ولذا لم يشق على علمائهم وكتابهم ما نزل على التركى المسلم من اضطهاد الابعاد عن الاسلام . ولم يشغل حاله بالهم — ولا يزال — حق الشغل . كل ذلك من تقليد الغرب الذى عمت بلواه فصار بعض المقلدين يقلد ولا يتنبه لموقفه وصار بعض من ينكر التقليد و يأمره واجبه بانكاره يقع تحت تأثير المقلد ولا يشعر ومن هذا راجت بدعة المجاذبة لمعانى آيات القرآن حتى تخرج من حدودها والناس مجبولون على حب الابتداع والتجديد كما

يقول المثل المشهور « لكل جديد لذة » وقد استدل بعض الافاضل المعاصرين بقوله ﷺ « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » على أن التجديد مرغوب فيه فى دين الاسلام وفيه ـ مع كون المعنى الذى يقصده العصريون من التجديد لا يتحد مع التجديد المذكور فى الحديث ـ أن الإسلام لم يمدح التجديد فى الدين قدر ماذم البدعة فيه وحذر منها حيث قال بملء فيه (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار) .

على أن أكثر مارأينا من التجديد فانما العامل فيه التقليد وكم فرق بين التقليد والتجديد كما أن كثيراً من تفسير الآيات الذى يقع بدافع التجديد فاسم التغيير أجدر به من التفسير وما قولك فى ادعاء أن القرآن لايمنع نظرية (دارون) الشائعة فى مصر شيوعا مدهشاً القائلة بكون القرد أبا البشر والمدعى يستند الى عدم كون النفس الواحدة فى قوله تعالى فى أول سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) نصاً فى أبينا آدم عليه السلام وفيه أن قوله تعالى بعده (وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) يدل دلالة قطعية على أن المراد من (نفس واحدة) سيدنا آدم إذ لا احتمال لكون المعنى أن الله تعالى خلقنا من قرد واحد وخلق منه زوجه وبث منهما رجالا كثيراً ونساء .

بل نقول إن تطبيق نظرية النشوء والارتقاء على الانسان والقول باشتقاق البشر من القرود لايأتلف قطعاً مع خلقهم من نفس واحدة أيا كانت النفس الواحدة إذ ليس معنى تطبيق تلك النظرية على البشر أن يشتق انسان واحد من قرد واحد ثم ينتشر منه الناس فيرجعوا الى أصل واحد هو نفس المشتق الواحدة أو نفس المشتق منه الواحدة بل أساس نظريتهم يأبى رجوع أصل

الأنواع الى الواحد الشخصى كما يظهر من مراجعة كتبهم والآية تأبى تلك النظرية بمجرد تعبير نفس واحدة عن الأصل الذى خلق منه البشر كائنا ما كان المراد من تلك النفس الواحدة فقول القائل : « ان النفس الواحدة في الآية لاتنص على آدم » لايجديه لأنه إن لم تنص عليه فلاشك فى نصها على نفس واحدة فان كانت هى عبارة عن سيدنا آدم فهو خلاف المفروض عند القائل وإن كانت عبارة عن فرد واحد فهو خلاف نظرية النشوء والارتقاء فكما لاتأتلف تلك النظرية مع كون آدم أبا البشر وكون الناس كلهم بنى آدم على ماهو المعروف عند الملليين والموافق لتعبير القرآن (يابنى آدم) ، لاتأتلف برجوعهم الى أصل واحد شخصى ولو كان ذلك الواحد الشخصى قرداً .

هذا مع مافى الآيات الأخر من التصريح بخلق آدم من تراب وخلقه من غير أب وأم كقوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) أصرح فى الدلالة على أن الله تعالى خلق أبانا آدم من طين ولم يتخلل بين خلقه وبين أمره الملائكة بالسجود له إلا تسوية طينه ونفخ الروح فيه فلو سبق له دور القرد لكان بعد نفخ الروح فى طينه المسوى وعندئذ أمر الملائكة بأن يسجدوا له فهل سجدوا له وهو قرد ؟

ثم لامعنى لقولهم « ان نظرية النشوء والارتقاء لم تثبت بعد بدليل قطعى ولا ضرورة فى تأويل النصوص القرآنية إلا بعد ثبوت تلك النظرية » إذ لا امكان لتأويل النصوص حتى يتأهبوا له على تقدير ثبوت تلك النظرية فما نطق به القرآن من خلق الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها وبث

بنى آدم منهما رجالا و نساء وخلق آدم من طين و أمر الملائكة بالسجود له عقب تسوية بدنه و نفخ الروح فيه و تمثيل خلق سيدنا عيسى من غير أب بخلق آدم ، كل ذلك يمنع نظرية تطور الانسان و تحدره من القرود و يمنع احتمال ثبوت تلك النظرية و يجعل حديث تأليف امكان القرآن معها على تقدير ثبوتها حديث خرافة ومما يؤسف له أن رجال الدين المسيحى نفوا احتمال نشأة الانسان من القرد بتاتاً و كفّروا من قال به بحجة أنه مخالف لما جاء فى التوراة ولم يبت بعض علماء الاسلام المتأخرين بنفى ذلك الاحتمال مع أنى لا أظن أن مخالفتها للتوراة أشد من مخالفتها للقرآن فكأنهم لا يثقون بما جاء فى القرآن ثقة رجال الدين المسيحى بما جاء في التوراة ولو سمع (دارون) أن من علماء الاسلام من يدّعون امكان تأليف القرآن مع نظريته مجاملة لعلماء الغرب و إيناساً لهم بكتاب الاسلام و علم آيات القرآن لضحك من عقولهم بدلا من أن يستأنس بكتابهم وضحك من إيمانهم بكتابهم و هل يجدر بأى عالم من علماء الاسلام أن يؤمن باحتمال ثبوت نظرية تطور الانسان من القرد بعد نفى كتاب الله ذاك الاحتمال و يجعل إيمانه بها أساساً لايمانه بالكتاب فيحرف الكلم عن معناه أو على الاقل يتأهب له ؟

هذا مافى القرآن و هو حسبى دليلا قاطعاً بنفى نظرية التطور فى الانسان التى لم تثبت بعد و نفى احتمال ثبوتها فى يوم من الأيام مع أن علماء النفس الغربيين قالوا « إن الفرق بين الانسان و الحيوان ماهو بفرق ناشئ عن الاختلاف فى الدرجة بل هو فرق ناشئ عن الاختلاف فى الماهية والطبيعة فمهما كان التناسب بين الانسان و الحيوان فى الشكل الآلى — حتى ولو زاد على ما كان — فبين الذهن الانسانى و الحيوانى حاجز لايجتاز » وهذا

بنصه كلام (جورج لى . فونس جريو) الفرنسى صاحب كتاب مبادىء الفلسفة ـ الذى ترجم الاستاذ العلامة احمد نعيم بك التركى القسم الاول منه وهو مختص بعلم النفس ـ فكيف يسلّم علماء الاسلام باحتمال اجتياز ذاك الحاجز واجتياز الحاجز القرآنى الذى هو أمنع منه وما أحسن قوله عن تناسب الانسان والحيوان فى التشكل الآلى : « حتى ولو زاد على ما كان » وإنى متعجب من سخافة عقلية الذين ينتظرون من المستقبل اكتشاف جثة أو جمجمة أثرية تتم بها حلقات الاتصال بين الانسان والقرود لان كل ما اكتشف منها وما يكتشف لايتعدى وراء التناسب فى التشكل الآلى وهو لايثبت مطلبهم منطقياً لأن آخر مايمتاز به الانسان عن الحيوان وهو النفس الناطقة على التعبير القديم أمر معنوى لامكان له فى الآلات والأعضاء المحسوسة .

فآخر ما يكتشف ويقال عنه أنه الشكل المنشود يحتمل أن يكون أشبه انسان بالقرد أو أشبه قرد بالانسان فى الشكل الآلى فقط ولايكون واسطة اتصال وانتقال بينهما وإذا ثبت الاحتمال سقط الاستدلال ومنه يعلم أن باب الاستدلال الذى يحصل به القطع بثبوت تلك النظرية من طريق الحفريات والاكتشافات الاثرية المنتظرة مقفل قطعاً ومنه يعلم أيضاً أن العلوم المادية المبنية على التجارب والتى يسمونها علوما مثبتة ويعتبرون العلوم غيرها كأنها غير المثبتة ومقتضاه أنها المفيدة لليقين لاغيرها فليست كما يدّعون من القوة وليس غيرها كما يزعمون من الضعف بل النتيجة فى مسألة أى علم تابعة لاستقامة منطق المستنتج وسقامته وليس للمادة لسان ينطق بكل حقيقة إن لم يكن لك عقل يدرك ماتستنطقها به .

وكنت حينما كنت فى بلادى ناقشت أكبر كتاب الترك وأميرهم فى

مسألة تعدد الزوجات وكان مناظري قد أنكر حتى فائدته في تكثير النسل فقلت له أليس من البديهي تولد الأولاد الكثيرة من الأمهات الكثيرات فكان جوابه أن الاحصاآت لاتُرى ازدياد النفوس في بلاد يجري فيها تعدد الزوجات بل ترى انتقاصها بالعكس والاحصاء لايخطيء أبداً في حين أن المنطق قد يخطيء. ثم انتقل الكلام الى الموازنة بين المنطق والاحصاء وإلى أن أيهما أحق بالاستناد فقلت ان الاحصاء يمكن أن يرى تعدد الزوجات في بلدة ويرى معه انتقاص النفوس فيها من يوم الى يوم ولا يقدر الاحصاء على أن يفهم التلازم بين الأمرين أعني أن هذا نشأ من ذاك فيمكن أن تكون هناك أسباب أخر توجب الانتقاص والذي يفهم وجود التلازم وعدمه بين الشيئين ويحكم به هو المنطق وهو يستخدم الاحصاء وغيره ويستعمله استعمال الأدوات والحاكم الفاهم هو المنطق ولولاه لما أفاد الاحصاء والتجارب أي شيء.

وجدُّ القول أن ليست نظرية أسخف ولا أبعد إلى الذوق السليم من النظرية القائلة بالقرابة النسبية بين الانسان المخلوق في أحسن تقويم وبين القرد الذي هو أقبح أنواع الحيوان وأقذرها وهي حقارة للانسانية أخزى الله الجيل الحديث بادعائها لنفسه قبل وقوع ادعاء القرابة من جانب القرود مع كونهم (لنقل كذا) أحق به لتقدمهم في العراقة وإني أعتذر الى القارىء من دخول هذه المسألة في مقدمة الكتاب الذي خصصته لتحقيق مسألة القدر مع أنه ليس من دأبي أن أخلط بالكتاب شيئاً من غير موضوعه ولكني أردت أن أذكر مثالا لمبلغ ما ألقاه سيل التقليد الغربي في مجاريه من حمأة العقليات الخاطئة التي من جملتها ومن جنسها الاستهتار الاخير بانكار القدر

وحاصل العنز شدة تعلق هذه المسألة بسبب تأليف الكتاب .

و إذا عدنا الى ما نحن بصدده فانى اطلعت بعد مجيئى الى مصر على رسالة ذات ثلاثة أجزاء ادعى كاتبها أنه وضع علماً جديداً وأسمى رسالته (علم القضاء والقدر أو سر تأخر المسلمين) فنسب جميع أهل المذاهب فى مسألة أفعال العباد وجميع العلماء المتكلمين فيها القائلين بالقدر من خلفهم وسلفهم إلى الضلال بل إلى الكفر واستشهد بقول مؤلف فرنساوى « إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل » ص ٤٤ من علم القضاء والقدر وقال واضع هذا العلم فى ص ٥٧ « إن المنتقد الخبير إذا نظر على يمينه وحول بصره الى الامم التى لا تدين بالاسلام لرآى منهم إقداما ونشاطا يحير الألباب بما يظهرونه من آيات الله ونعمه المدفونة فى العالم من كل اختراع جديد وكشف مهم ولما حصر الجمعيات الخيرية المتعددة فى بلادهم والشركات الكبرى والاحتفالات بالمعارض والصناعات والتبرعات الهائلة من كرام المحسنين لخير الوطن والرفق بالايتام والفقراء والأموال الخيرية لانشاء الأساطيل وغيرها مما لا يعد ولا يحصيه العقل والفكر مما يدل على الحياة الجميلة العالية حتى صارت هذه الامم أبهج من نور الشمس بعلومها وقوتها واجتهادها وسهرها على ماينفعهم فى جميع أمورهم وكادوا يبتلعون الارض وما عليها من نعم وخيرات ومنافع عديدة ولعل سبب ذلك عدم تشرب قلوبهم بعقيدة القدر مقلوبة كما تشربها المسلمون وان كانت هذه العقيدة مبحث كثير من علماء جميع الامم فاذا حول بصره الى الجهة الأخرى ونظر الى الامم الاسلامية على اختلافها لرأى الانقسام والتباغض

والتحاسد والجهل والتأخر على أكثرهم ولعلم أن الجميع فى مرض صار مزمنا يعز شفاؤه ويكاد الانسان ييأس من وجود دواء لشفائه وسببه فى الغالب الخمول الناتج من فهم القضاء والقدر مقلوبا » .

وليس عند واضع علم القضاء والقدر قدر يتقدم فى علم الله على أفعال الانسان وانما الاقدار الالهية للانسان نتيجة لجهوده الاختيارية والله تعالى عما يقول الرجل علواً كبيراً لايعلم من عبده فى الأزل إلا كونه مختاراً فى أفعاله ولا يعلم قبل أن خلقه وفعل هو مافعله من خير أو شر أو نفع أو ضر ماذا يفعله باختياره مما يمكنه أن يفعله ولو علم كان الانسان غير مختار والقول بعلم الله القديم المتعلق بأفعال العباد حسبما تقع منهم « كفر صراح » عنده وقد صرح بكفره اللازم لنسبة الجهل الى الله تعالى عن ذلك فى غير موضع من كتابه وهو لايعده جهلا مدعياً أن له تعالى فى الأزل علمين متضادين عن كل مايحتمل أن يفعله الانسان وان لايفعله فان فعله ظهر علمه المتعلق بوقوعه وغاب علمه المتعلق بعدم وقوعه وان لم يفعله ظهر علمه المتعلق بعدم وقوعه وغاب علمه بخلافه وهذا معنى كون الله (عالم الغيب والشهادة) عنده ومدعياً أيضاً أن القول بعلمين لله أفضل من القول بعلم واحد قال فى ص ٤٣ من الجزء الثانى « وهل فرض سعة علم الله من الجهتين ايمانا وكفراً لكل انسان أفضل أم تضييقه وفرض العلم من جهة واحدة أفضل مع علمك بقوله تعالى (وسع ربى كل شىء علما) ثم قال « ومنها تعلم أنه كتب له فى أم الكتاب خطين متضادين من العلم علم لايمانه وعلم لكفره وموت على الكفر بحوادثه المتنوعة وأراد سبحانه أن يكون مخيراً بين وقوع أحدهما لنفسه ولحريته فان اختار الموت على الكفر فقد محا الله مايجانبه مما كان مكتوبا له من الموت على الايمان أيضاً

باختياره ولذا كان علمه تعالى باختيار الانسان بعد وقوع الاختيار نفسه لاقبل الاختيار لانه لو كان قبله ما كان اختياراً مطلقا ولذا قضى الله بحق وتسر أن يكون رقيباً على كل انسان مراقبة شديدة لهذا العلم بما يختار وليكتب ماله وما عليه بعدل وحق » .

وفى زعمه أن قوله تعالى ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ دليل على أن الله تعالى لايعلم الصادقين من عباده والكاذبين قبل فتنتهم وتجربتهم ومثله قوله تعالى ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ وقوله ﴿ وليعلم الذين نافقوا ﴾ وقوله ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ [وان لم يذكرها][1] وقوله ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ وقوله ﴿ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وقوله ﴿ وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾ وعنده أيضاً أن لله تعالى علمين متضادين بايمان الانبياء والملائكة وكفرهم قبل خلقهم ووقوع ماوقع منهم بل وبعبادة كل مخلوق من الحيوان والنبات والسماء والارض وعصيانها وايمانها وكفرها فان آمنت وأطاعت يظهر علم الله بايمانها وطاعتها ويخفى علمه بكفرها وعصيانها وفى زعمه أن فى قوله تعالى ﴿ فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا

---

(١) والرجل لا يتفطن فى أول ماقرأ هذه الآيات أنها ليست على ظاهرها لعدم تمييز ماجاز بشأن الله تعالى عنده عما لم يجز وعدم معرفة مسلك أهل التفسير فى مثل تلك الآيات فاستحالة معنى التجربة والاختبار فى شأنه تعالى لاستلزامه الجهل السابق تكون قرينة مانعة عن كون تلك الآيات على حقيقتها فمعناها أن الله تعالى يعامل عباده معاملة من يختبرهم ويريد أن يعلم ماهم يعملون وان كان عالما به من دون حاجة الى اختبارهم فالكلام مبنى على التشبيه والتمثيل وفائدته بيان شدة رقابته تعالى على عباده فكأنه يختبرهم ليعلم أحوالهم لان اختبر أشد اهتماما بحال من يختبره من الخبير وهذا ما أختاره فى توجيه تلك الآيات وللمفسرين وجوه أخر لاتتبين فيها نكتة العدول عن الحقيقة والتعبير بما يحتاج الى التأويل لاستلزامه الجهل المحال فى حقه تعالى .

طائعين ﴾ دلالة عليه ولو كان الله يعلم عنهما الايمان وحده من غير كفر أو عصيان ما كان هناك ضرورة لذكر قوله ﴿ أو كرها ﴾ فالله تعالى عنده لا يعلم قبل خلق السموات و الأرض هل تطيعان أمره التكوينى أم لا ومعناه أنه لا يعلم قبل خلقهما انه قادر على أن يخلقهما .

و كل مزاعم الرجل جهل بالله تعالى و آياته ليست و راءه جهالة و ضلالة وهو لا يعلم أنه لا يكون علمان متضادان يتعلق أحدهما بوقوع شيء والآخر بعدم وقوعه وليس من شأن العلم الذى يعرّفه العلماء بانه «صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض» أن يتعلق بكلا الجانبين من الوقوع واللاوقوع لأنه بمعنى اجتماع النقيضين الذى هو أشهر مثال للمحال إذ العلم لا يكون إلا بالجزم والايقان وهو لا يتعلق إلا بجانب واحد و ما يزعمه علمين بالجانبين عبارة عن الشك والتردد بينهما ولا يكون الشك المتساوى طرفاه بل ولا الظن الراجح طرفه من العلم فى شيء و إنما الشك والتردد بين وقوع شيء وعدم وقوعه جهل بسيط بحال الشيء والقول بسعة علم الله بفضل هذا الجهل لكونه علمين حيال علم واحد من سعة جهل القائل يخيل اليه الوسعة الكامنة فى الجهل لكونه دائراً بين أمرين من الايجاب والسلب سعةَ العلم والله تعالى قال عن نفسه ﴿ وسع كل شيء علما ﴾ ولم يقل وسعه جهلا ومن عجيب البلادة المنضمة الى جهالة الرجل أنه ينفى علم الله بحال عبده قبل خلقه و يصرح بقوله لا يعلم ثم يقول إنه يعلم عنه علمين فكأن عدم العلم علمان !!

و الرجل يجهل البديهيات الأولية ويجهل جهله ثم يجهّل جميع علماء الاسلام و يضللهم ويخص بالذكر منهم الشيخ محمد عبده لاعترافه بسر القدر الذى لا يصل الى حله العقول وشيخ الاسلام ابراهيم الباجورى شارح جوهرة

التوحيد وابن غانم المقدسي وشيخ الاسلام ابن تيمية وحجة الاسلام الغزالي والامام أبا الحسن الاشعري لقولهم بالجبر والحكيم ابن الرشد لقوله « وهذه المسألة من أعوص المسائل الشرعية وذلك اذا تؤمل دلائل السمع في ذلك وجدت متعارضة وكذلك حجج العقول » وهو يرى في زماننا قوة الأمم غير المسلمة الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فيجلهم وضعف المسلمين فزدريهم ويستهين بعلمائهم وأئمتهم ويجهلهم بل يجهل الله عز وجل ويسند تأخر الأمم الاسلامية الى إيمانهم بالقدر ومن أين يدري الجاهل أن الايمان بالقدر من أعظم منابع القوة لا الضعف ولم يتنبه لخطأه في سوء الظن بهذا الايمان من المسلمين مع قوله « وان كانت هذه العقيدة مبحث كثير من علماء جميع الأمم » فكيف لم تؤخر أولئك الأمم كثرة علمائهم الباحثين فيها .

أما قوله عن عقيدة المسلمين وعلمائهم في القدر إنها عقيدة مقلوبة وصحيحها أن يكون الانسان حاكما على القدر لا العكس فمن زعمه الباطل ولا يبقى معنى للقدر اذا كان كما توهمه تابعاً لحركات الانسان غير متبوع ولا تبقى له قيمة أن يكون مبحث العلماء من كل أمة والرجل يغيب عنه أن السبب الحقيقي لتأخر المسلمين منذ زمان فساد أخلاقهم وضعف إيمانهم بالقدر وقوة جهلهم الذي أقام الرجل فيه من نفسه مثالا لهم عظيما ومن جملة الاسباب عدم وقوف كل أحد منهم عند حده فيتدخل بعلوم من لا صلة له بها ولا يتركها لعلمائها ولا سيما العلوم الدينية التي أصبح حماها عرضة للناس يدخله من يشاء ويركض برجله في طوله وعرضه من غير حاجة الى استئهال له وقضاء عمر في دراسته في حين أن الغرب آمن بنظام الاخصاء وأسس بنيان رقيه عليه ومن لم يبال بهذا النظام ورط نفسه ولا يوضع حد لما يقع فيه من

الاخطاء كما وقع الرجل .

وهذا علم النفس المترقى فى الغرب يرى علماؤه أن الانسان مسير لامخير قال الاستاذ حسين رمزى أستاذ علم النفس بالجامعة المصرية فى محاضراته التى نشرتها مجلة القضاء الشرعى :

« تقضى المصلحة علينا فى كثير من الاحايين بالوصول فى بعض المسائل النفسية الى جواب معين نعتقد أنه يوافق مصلحة لنا بدلا من الوصول الى الحقائق فنحن نريد أن نحكم فى مشكل الارادة بأن الانسان مخير لامسير مثلا وهذه الحالة عاقت سير العلم ولاتزال تعوقه لارتباطها بمذاهب المسئولية الشرعية والقانونية والخلقية ، إلا أن من واجب علم النفس أن لايلتفت الى الفائدة ، فالحقيقة العلمية محبوبة لذاتها وهى الغاية التى تسعى الانسانية للوصول اليها وليس للعلم أن يتحول عنها أصلا فان قال عالم الاخلاق والقانونى والشرعى بوجود الارادة فعالم النفس لايستسلم الى هذا القول بل يتحتم عليه أن يبحث الموضوع مجرداً من كل غاية (ومن كل حكم سابق) إلا غاية واحدة هى البحث عن الحقيقة وان قال الدين ان نفى وجود الارادة يؤدى الى نسبة الظلم لله عز وجل وأن اثبات وجود الارادة يؤدى الى نسبة العجز لله تعالى وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم والعجز فالعالم النفسى لايقرر إلا نظريات نفسية علمية ولايقرر حكما علمياً إلا متى تثبت من الحقيقة لقد أظهر دارسو الارادة فى بادىء الأمر وبتأثير النظرية الميكانيكية أن الانسان مجرد جرثومة حية تحمل أثناء تكوينها ونموها عن طريق الوراثة آثار الاجيال الماضية مابين صفات طبيعية ومرضية وأن هذه الجرثومة تنشأ خاضعة لتأثير بيئة طبيعية مرتبطة بظروف اجتماعية منها الغنى والفقر والجهل والعلم والحالة

الادبية و المدنية . . . الخ فالانسان مسير لامخير وهـذه النظرية ذاعت فى شكل حكم علمى بتأثير أنصار النظرية الميكانيكية وأخـذ بعض المشرعين فى سن قوانين على أساس غير أساس حرية الارادة »

وهنا أسأل صاحب (علم القضاء والقدر) المعجب بحال الامم الغربية هل يكون قول علمائهم النفسيين بنفى وجودارادة الانسان قاضياً على رقيهم ونشاطهم وجذاماً يفتك فيهم وشللا عاما وهل يبرز فيهم من ينادى بمنع أولئك العلماء من مواصلة بحوثهم العلميـة وقاية لأمتهم من الشلل والكسل كما فعل هذا الرجل و نادى بجهله فى تجهيل علماء الاسلام و تضليلهم مع أن علماء الاسلام لم يقالوا فى قولهم بالقدر الى أن ينفوا ارادة الانسان ويقولوا بلزوم نسبة العجز لله تعالى من إثبات الارادة للانسـان و انى أقول ان الانسان مسير و مخير لامسير فقط كما قال علماء النفس فليسمع الذين يعملون بدافع التجديد الناشئ عن التقليد و يحملون على علمائنا القائلين فى مسألة القضاء والقدر بالجبر المتوسط ، قولَ علماء النفس الغربيين و على الاقل قول بعض منهم بالجبر المحض وليخففوا من غلوائهم (١)

أما إسناد الجهل الى الله تعالى فى سبيـل الفرار من الجبر فأمر لم يخطر ببال الفارين من أهل المذاهب و ما يدرى الرجل أن الجبر الناشئ من علم

---

(١) ولا يظن بنا من الاستدلال بقول علماء النفس الغربيين انا نأخذ آراءهم بعينها كما عرفناه من مفتونى الشرق بهم فربما يكون قولهم ذاك فرع القول بالطبيعة وكون الانسان مسيراً تحت العوامل الطبيعية وفرق عظيم بين القول بكونه مسيراً تحت تلك العوامل وبين القول بكونه مسيراً تحت مشيئة الله ومما يؤيد الثانى ويابى الاول انا نرى أخوين لابوين ورثا دما واحدا وتربيا فى بيئة واحدة وتعلما فى مدرسة واحدة وحف بأحدهما ما يحف بالآخر من الظروف الادبية والمدنية ثم اختلفا وتباينا فى السيرة والعمل

الله الازلى تدار كه العلماء الذين لم يعبأ هو بهم وقد تقاصر فهمه عن إحاطته حتى عبر عنه ببدعة الانكشاف وسيجىء تحقيقه فى محله .

وكأنى بالقارئ يعنفنى على طول اهتمامى بأضاليل الرجل الساقطة بنفسها عند أولى النهى فى صدر الكتاب وعدم تأخيرها على الاقل الى صف الذين انتقدت آراءهم فى الكتاب لكنى تكلمت فى الكتاب مع العلماء وناقشتهم لا الجهلاء و إنما قصدى فى المقدمة لفت النظر الى سوء حظ مسألة القدر وحد اختلاط الحابل فيها بالنابل و معاناة العلم والعالم من الجاهل وحد مايمصر من المضحكات المبكيات وأنواع الغارة الشعواء على علم الدين بين ظهرانى العلماء وقد تحداهم الرجل وادعى فى كتابه إلزام شيخين ناظرهما وأقنعهما بدعواه الطويلة العريضة فى تضليل عقيدة الاسلام بالقدر ولم أكن أتكلم عنه فى كتابى وأعبره قيمة الكلام عليه ولو بهذه النبذة الاجمالية لو لم أجد بين شكاياته عن عقيدة القدر الاسلامية و بين شكاية من يجب الاهتمام بكلامه مشابهة ما .

وقد وقع بعيد هذه الرزية الجاهلية أن ألقيت فى قاعة جمعية الهداية الاسلامية بالقاهرة محاضرة فى القضاء والقدر للعلامة الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقا وأستاذ الاساتذة بها ، ربما يخيل للواقفين على انتشار كتاب الجاهل الجرىء المار ذكره أن دافع محاضرة فضيلة الشيخ الرد عليه وعلى ما كاد يرتكز فى أذهان العصريين من سوء الظن بعقيدة القدر القديمة الاسلامية و إنى رأيت المحاضرة فى مجلة الجمعية المشار اليها الغراء وأنا إذ ذاك مقيم بالتراكيا الغربية اليونانية حيث يسكن بها المسلمون الاتراك فعنيت بقراءتها رجاء أن أجد فيها الشفاء وانوفاه